من أساليب القرآن الكريم في كسر أفق التوقع

إعداد

أ.د. أحمد سعد محمد الخطيب

أ. د. أحمد سعد محمد الخطيب

- حصل على درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن من كلية أصول الدين والدعوة بجامعة الأزهر بأسيوط بأطروحته " قضية التبني – دراسة في ضوء الكتاب والسنة".
- حصل على درجة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن من كلية أصول الدين والدعوة بجامعة الأزهر بأسيوط بأطروحته تنظيم الإسلام للمجتمع في ضوء سورة النساء".
- عضو اللجنة العلمية بالجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه.

بسم الله الرحمن الرحيم

من أساليب القرآن الكريم في كسر أفق التوقع

افتتاحية وتوطئة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:١٠٢)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء:١)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب:٧٠-٧١)

أما بعد،

فإن كثيرا من المصطلحات الأدبية المحدثة تجفل نفسي عنها ، فأنزه القرآن عن أجعل صلةً ما بينه وبينها ، ولربما كان من أسباب ذلك هو كونها تدور على ألسنة من يتعالون على الناس بادعاء الحداثة والفكر ، موهمين إياهم بأنهم وحدهم أولو الألباب والعقول المستنيرة ، في إيماءة إلى اتهام

غيرهم بأنهم ظلاميون متخلفون رجعيون.

لكن مصطلحًا منها قفز إلى نفسي قفزا ، فرأيت تطبيقاته كائنة في تمامها في القرآن الكريم ، وهو مصطلح "كسر أفق التوقع".

وذلك أن عملية استباق النتائج وتوقع ما سيؤول إليه النص في الأدبيات الحديثة إحدى ثمار تفاعل القارئ مع النص عندهم ، لكن بعض النصوص تضِنُّ أحيانا على القارئ بنتائجها ومستقبل أحداثها ، فتفاجئه بما لا يتوقعه، لتحدث فيه نوعًا من الدهشة والاستغراب وربما النشوة أيضا ، ويعرف هذا بـ "كسر أفق التوقع".

إن مخالفة المتوقع في النصوص الأدبية إذا كانت تصيب القارئ بالدهشة أحيانا والنشوة أحيانا أخرى ، تبعا لتفاوت النصوص وقائليها ، فإن ما جاء على خلاف الأصل في القرآن الكريم [1]، أو على خلاف التوقع يثير الدهشة والإعجاب دائما لما يحمله من فوائد ونكات ، ما كان لها أن توجد لو كان التعبير ملائما لما هو متوقع.

إن النظم القرآني في حالتيه المتوقعة وغير المتوقعة ليفيض بهاء وعطاء بحيث إنك لا تجد عوضا قط عن أي مسلك سلكه ، أو أي طريق اختطه

(١) " ما جاء على خلاف الأصل" أو "خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر" هو التعبير التراثي – عند علمائنا – الذي يقترب كل الاقتراب من مصطلح المعاصرين (كسر أفق التوقع) بيد أن هذا الأخير صار أثيرا عندي لكونه ألصق بموضوع الدراسة التي أعنى بها هنا ، وأكثر دلالة عن مقصودها ، دونما غضاضة للتعبير الذي جرى على ألسنة علمائنا كالزركشي والسيوطي في كتابيهما العظيمين البرهان في علوم القرآن، والإتقان في علوم القرآن.

لنفسه ، في غير ما سلكه القرآن ومضى عليه ، وهذا سر عظيم من أسرار إعجاز القرآن الكريم.

وكان الإمام عبد القاهر الجرجاني فارس الميدان في هذا عندما قرر في غير تردد أن إعجاز القرآن إنما هو كائن في نظمه ، وصاغ في تقرير ذلك نظرية عظيمة باتت تعرف بـ " نظرية النظم "

وهي نظرية حسم بها عبد القاهر الخلاف حول قضية اللفظ والمعنى ، وكان الخلاف محتدما قبل عبد القاهر حول الصلة بين اللفظ والمعنى ، وبأي منهما يقاس الكلام ؟

واشتهر عن الجاحظ أنه من أولئك الذين تعصبوا للفظ على حساب المعنى ، لما قاله في كتابه "الحيوان" من كلام صارت له شهرة الأمثال ، نصه:

"المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي،والبدوي والقروي ، والمدني وإنما الشأن في إقامة الوزن،وتمييز اللفظ وسهولته ، وسهولة المخرج ،وفي صحة الطبع ، وجودة السبك ...."[(١)]

فجاء عبد القاهر ليقرر أن "الألفاظ خدم للمعاني وهي تالية لها في الترتيب " [(٢)] أي على أساس المعنى وتعبير الألفاظ عنه يُقَيَّم النص بلاغةً.

وثمرة هذا الخلاف تظهر في تحديد وجه إعجاز القرآن الكريم: هل هو باللفظ فقط أي بالبلاغة فقط ؟ وهو ما قد يوحي إليه كلام الجاحظ سالف

(١) الحيوان للجاحظ ٣/ ١٣٢

(٢) دلائل الإعجاز ١/ ٥٩

الذكر.

أو باللفظ والمعنى ؟ ليدخل في الإعجاز سائر الوجوه التي عددها العلماء من الإخبار بالغيب وعظمة تشريعه ووعده ووعيده ...إلخ وجوه الإعجاز التي يذكرها العلماء ، حال كونها معبرا عنها أبلغ تعبير وأدل على أحوالها ومعانيها . وهو ما يؤكده عبد القاهر في نظرية النظم ، التي يقرر فيها أن سر البلاغة وقوة الكلام كائن في العلاقة المتمخضة عن ارتباط اللفظ بالمعنى ، وهو ما يسميه عبد القاهر "توخي معاني النحو وأحكامه عند المتكلم " وبالتالي هي دلائل إعجاز القرآن الكريم .

فماذا تقول هذه النظرية ؟

نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني:

لقد أوجز عبد القاهر في الدلائل نظريته في النظم التي تكمن في توخي معاني النحو وأحكامه عند المتكلم وقال في هذا:

"واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها، وذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه ، غير أن ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق، و زيد ينطلق، وينطلق زيد، و منطلق زيد، و زيد المنطلق، و المنطلق زيد ، و زيد هو المنطلق، و زيد هو منطلق.

وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: إن تخرج أخرج،

وإن خرجت خرجت، وإن تخرج فأنا خارج، وأنا خارج إن خرجت، وأنا إن خرجت خارج.

وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: جاءني زيد مسرعا، وجاءني يسرع، وجاءني وهو مسرع، أو هو يسرع، وجاءني قد أسرع، وجاءني وقد أسرع. فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجيء به حيث ينبغي له.

وينظر في الحروف التي تشترك في معنى، ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيضع كلا من ذلك في خاص معناه نحو: أن يجيء بـ "ما" في نفي الحال، وبـ "لا" إذا أراد نفي الاستقبال، وبـ "إن" فيما يترجح بين أن يكون، وأن لا يكون وبـ "إذا" فيما علم أنه كائن.

وينظر في الجمل التي تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف فيما حقه الوصل موضع "الواو" من موضع "الفاء" وموضع "الفاء" من موضع "ثم" وموضع أوْ" من موضع "أم" وموضع "لكن" من موضع "بل".

ويتصرف في التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف والتكرار، والإضمار والإظهار، فيضع كلا من ذلك مكانه ويستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له.

هذا هو السبيل. فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا، وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه أو عومل بخلاف

هذه المعاملة فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه" (١)

التوقع والاستباق في أسلوب القرآن الكريم:

إن انسجام المعاني في القرآن الكريم وتأنق ألفاظها ودقة تعبيرها عنها ، ليقودك في انسياب إلى استباق بعض المعاني التالية وربما بنفس ألفاظها وتعابيرها.

ولهذا وقع لبعض الصحابة النطق بخاتمة آيات من القرآن حين سماعهم لها للوهلة الأولى إبّان نزولها، ومن ذلك:ما أخرجه ابن أبي حاتم من طريق الشعبي عن زيد بن ثابت قال: أملى عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾ (المؤمنون: ١٢ – ١٤)

فقال معاذ بن جبل: (فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ) فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له معاذ: مم ضحكت يا رسول الله ؟ قال: بها ختمت.

(١) دلائل الإعجاز ص ٧٧ ، ٧٨.

وورد في بعض الروايات أن ذلك من موافقات عمر رضي الله عنه، أخرج ذلك ابن أبي حاتم وغيره كما نقل السيوطي في الدر المنثور(1) وذكره الواحدي في أسباب النزول (2)

وعلى ذلك فما ورد على ألسنة الصحابة من كلام اتفق وجوده في القرآن هو راجع إلى هذا الرقي العالي في البلاغة القرآنية التي يتسلسل فيها الكلام وينساب انسيابا ، يمهد فيه سابق للاحق ، ويبنى فيه ثان على أول ، وتتوثق فيه علاقة النتائج بمقدماتها ، على نحو منقطع النظير.(3)

وهو أمر يدركه أهل الذوق، فكيف إذا كان الكلام عن أرباب الصفاء الذهني والذوق البلاغي ، الذي فطروا عليه ، وهم الصحابة رضي الله عنهم ؟!

ولا يُفهَم من الأمر أكثر من هذا، وبذا يرد على زعم العلمانيين أن في القرآن بعض أقوال الصحابة.

فهذه أمثلة صادقة على التوقع والانسجام التام بين فقرات وأجزاء الآي القرآنية من بدايتها لنهايتها ، بما قد يؤول إلى استباق المعاني القرآنية ، وفي بعض الأحيان إلى استباق الألفاظ القرآنية كذلك ، وأكثر ما قع ذلك

(1) الدر المنثور ١٠ / ٥٦٤

(2) اسباب النزول للواحدي ص ٢١٠

(3) يعرف هذا بـ ائتلاف الفاصلة . وسماه بعضهم التمكين وعرفه بقوله: أن يُمَهَّد قبل الفاصلة تمهيد تأتي به الفاصلة مُمَكَّنة في مكانها، مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير نافرة ولا قلقة، متعلقا معناها بمعنى الكلام كله تعلقا تاما، بحيث لو طرحت لاختل المعنى، واضطرب الفهم . ينظر: مفاتيح التفسير لأحمد سعد الخطيب ١/ ١٨

في الفواصل القرآنية. ولذلك أقدم علماؤنا على التأليف في هذا الفن ، مطمئنين إلى عملهم هذا ، كما يدل له هذا السفر العظيم (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) لـ برهان الدين البقاعي.

كسر أفق التوقع في أسلوب القرآن:

إن الكلام البليغ إذا كانت المعاني تنساب فيه انسيابا في حالة التوقع ، بما يعين على استباقها ، أو استباقها بألفاظها ، كما لحظنا فيما مضى ، فإنه كذلك أيضا عندما يكسر أفق التوقع ، فترى الفوائد الغزيرة ، والمعاني الفيّاضة ، مترتبة على هذا التغاير في الأسلوب ، الذي يسميه التراثيون مخالفة الأصل ، ويسميه المحدثون: كسر أفق التوقع.

مظاهر ومجالات كسر أفق التوقع في الكتاب العزيز:

في الواقع إن مظاهر وتجليات ذلك في الكتاب العزيز كثيرة متوافرة ، بادية أمام كل من يجيد تدبر كلام الله ، والغوص في معانيه ، لاستخراج درره وفرائده ، وسأذكر منها هنا ما يلائم المقام ، ويجلّي الفكرة ، وأما الاستقصاء والاستقراء ، فله مقام آخر ، ومجال غير هذا.

وقد اخترت من هذه المظاهر ما يلي:

١ – الالتفات

٢ – الاحتباك

٣– التضمين

٤ – المغايرة في الإعراب والتوجيه النحوي.

٥ – التشبيه

٦- التهكم.

٧- الفاصلة

٨- الأسلوب الحكيم

٩- القول بالموجب

وهاك تفصيل القول عنها:

أولاً - الالتفات

الالتفات:هو نقل الكلام من أسلوب إلى آخر، يعنى: من التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى آخر منها، بعد التعبير بالأول(١).

وأضاف السكاكي إلى ذلك التعبير بأحد هذه الأساليب فيما حقه التعبير بغيره (٢).

والالتفات فن رفيع من فنون البلاغة سمي بذلك أخذا من التفات الانسان يمينا وشمالا فتارة يقبل بوجهه وتارة يلتفت يمينه وتارة يلتفت يسرة . وهكذا الالتفات في الكلام . فان المتكلم يلتفت فيه من خطاب إلى غيبة أو العكس . ومن تكلم إلى خطاب أو العكس ومن تكلم إلى غيبة أو العكس ويلقب الالتفات بشجاعة العربية ، ووجه هذه التسمية أن

---

(١) مفاتيح التفسير ١ / ١٦٧

(٢) إيضاح هذا جاء في كتاب "إزالة الإلباس عن كلام رب الناس" لأحمد سعد الخطيب فقدقال فيه: وقد اصطلح بعض العلماء على أن الالتفات ينضوي تحته كل كلام نقل من حالة الى أخرى مطلقا . ومن ثم أدخلوا فيه التعبير عن المضارع بالماضي وعكسه ، والانتقال من خطاب الواحد والاثنين والجمع الى غيره .... ص ١٣٩

الشجاعة هي الإقدام والرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره . ويتورد مالا يتورد سواه وكذلك الالتفات في الكلام [١].

* ومن فوائد الالتفات الإجمالية تطرية الكلام وصيانة السمع عن الضجر والملال، لما جبلت عليه النفوس من حب التغيير، هذه فائدة عامة. وإلا، فإن للالتفات في كل موضع لطائف وحكمًا.

جاء في البرهان للزركشي "وهم يسأمون الاستمرار على ضمير متكلم أو ضمير مخاطب فينتقلون من الخطاب إلى الغيبة ، وكذلك أيضا يتلاعب المتكلم بضميره فتارة يجعله تاء على جهة الإخبار عن نفسه وتارة يجعله كافا فيجعل نفسه مخاطبا وتارة يجعله هاء فيقيم نفسه مقام الغائب. فلذلك كان الكلام المتوالي فيه ضمير المتكلم والمخاطب لا يستطاب وإنما يحسن الانتقال من بعضها إلى بعض .... "[٢].

وأيًا ما كان الانتقال من حالة إلى أخرى على طريقة الالتفات ، فهو كسر لأفق التوقع ، وخروج على مقتضى الظاهر.

أنواعه وأمثلته:

الأول : الانتقال بالكلام من الخطاب إلى الغيبة .

وعبر عنه ابن قتيبة بقوله : أن تخاطب الشاهد بشيء ثم تجعل الخطاب له وعلى لفظ الغائب [٣] .

---

(١) الالتفات في حاشية الشهاب الخفاجي د/ هاشم محمد هاشم : ص :٢٦ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ٣ / ٣١٤

(٣) تأويل مشكل القرآن ص ٢٨٩ .

ومثاله قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا . . ﴾ الآية (سورة يونس: ٢٢) .

فقد التفت عن ﴿ كُنتُمۡ ﴾ وهو للخطاب الى ﴿ وَجَرَيۡنَ بِهِم ﴾ هو للغيبة.

وكان مقتضى الظاهر أن يقول (وجرين بكم) لكنه كسر أفق التوقع بهذا الالتفات إلى الغيبة ﴿ وَجَرَيۡنَ بِهِم ﴾

وفائدة هذا الالتفات استهجان فعل هؤلاء الذين لا يعرفون الله إلا وقت الشدة والكرب فاذا فرج عنهم كربهم عادوا إلى نكرانهم فضل ربهم عليهم ، ولأجل فعلهم هذا فهم ليسوا أهلا لأن يخاطبهم الله ومن ثم التفت عن خطابهم إلى الغيبة.

النوع الثاني : الانتقال من الغيبة إلى الخطاب

وقد ذكره ابن قتيبة وعبر عنه بقوله : وكذلك أيضا أن تجعل خطاب الغائب للشاهد [1] .

ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴾ (سورة مريم: ٨٨ – ٨٩)

وفي النص الكريم كسر لأفق التوقع حيث التفت من الغيبة في قوله ﴿ وَقَالُواْ ﴾ الى الخطاب في ﴿ جِئۡتُمۡ ﴾ ليعم بهذا الوعيد كل من يدعي أن

---

(١) تأويل المشكل ٢٩٠ .

للرحمن ولدا ، من ادعوا ذلك بالفعل ومن سيقعون في هذا الادعاء بعد ، حتى لكأن الجميع حاضرون .

النوع الثالث الالتفات من التكلم الى الغيبة :

ومنه قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ﴾ (سورة الكوثر: ١ – ٢)

حيث التفت من التكلم في ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ﴾ الى الخطاب في ﴿ لِرَبِّكَ ﴾ ولم يقل ((لنا)) حثا على إقامة الصلاة لحق الربوبية ، فتتحقق بذلك العبودية.

النوع الرابع : الالتفات من الغيبة إلى التكلم :

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ (سورة فاطر: ٩).

حيث التفت من الغيبة في قوله ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ الى التكلم في قوله ﴿ فَسُقۡنَٰهُ ﴾ و ﴿ فَأَحۡيَيۡنَا ﴾ والسبب أنه لما كان سوق السحاب إلى البلد الميت إحياء للأرض بعد موتها بما يحمله هذا السحاب من مطر فيه دلالة على قدرة الله الباهرة ، وعظمته الفائقة عدل عن لفظ الغيبة إلى التكلم لأنه أدخل في الاختصاص .

النوع الخامس : الالتفات من التكلم إلى الخطاب :

ومثاله قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ (سورة الفتح: ١ – ٢)

حيث التفت من التكلم في ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا ﴾ إلى الغيبة في ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ ﴾ ولم يقل ((لنغفر لك)) .

وذلك كي تتعلق هذه المغفرة باسمه الذي هو علم على الذات ، المهيمن على سائر الأسماء الحسنى وهو الاسم الجليل ﴿ ٱللَّهُ ﴾ ليعلم أنها مغفرة تامة .

النوع السادس : الالتفات من الخطاب إلى التكلم :

هذا النوع عزيز وجوده في القرآن الكريم. ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (سورة هود: ٩٠).

حيث عبر أولا بطريق الخطاب في قوله تعالى ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ ثم التفت فعبر ثانيا بطريق التكلم ﴿ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ وكان مقتضى السياق أن يقال : ((إن ربكم)) (١) .

ثانيا - الاحتباك

الاحتباك مأخوذ في اللغة من الحبك وهو شدة الإحكام وتحسين أثر الصنعة في الثوب، فحبك الثوب سد ما بين خيوطه من الفرج(٢)

وفي الاصطلاح: أن يجتمع في الكلام متقابلان فيحذف من كل واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه.(٣)

---

(١) الالتفات في حاشية الشهاب الخفاجي ١٩٥ .

(٢) ينظر: لسان العرب مادة حبك

(٣) ينظر مفاتيح التفسير ١ / ٤٨

وعرفه بعضهم بقوله: هو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول [(١)]

والاحتباك أحد أنواع الحذف ، و يعرف بهذا الاسم عند جمهور العلماء، غير أن الزركشي في البرهان سماه "الحذف المقابلي"[(٢)]

ويعتبر الاحتباك وسيلة من وسائل كسر أفق التوقع ، إذ الأصل أن يذكر كلا المتقابلين كل بما يخصه بلا حذف ، فيأتي هذا الأسلوب ليُكتفى فيه بذكر ما يخص أحد المتقابلين في التركيب ، ويحذف الآخر ، لكون المذكور يدل عليه .

ومن أمثلته في القرآن الكريم:

قوله تعالى: ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ ﴾ (النمل:١٢) فالتقدير تدخل غير بيضاء وأخرجها تخرج بيضاء فحذف من الأول غير بيضاء ومن الثاني وأخرجها.

(١) المرجع السابق

(٢) البرهان ٣ / ١٢٩

ويمكن توضيحه بالمخطط التالي:

المتقابلان		الصفة
الجملة الأولى	وأدخل يدك	مذكور
الجملة الثانية	وأخرجها	محذوف
الجملة الأولى	تدخل غير بيضاء	محذوف
الجملة الثانية	تخرج بيضاء	مذكور

ومنه كذلك قوله تعالى: ﴿ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ ﴾ (آل عمران: ١٣) أي فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الطاغوت.

ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (هود: ٣٥) والأصل: إن افتريته:

١ - فعلى إجرامي وأنتم برآء منه .

٢ - وعليكم إجرامكم وأنا بريء مما تجرمون.

وبذا يظهر جمال التعبر القرآني في حذف المقابل من كلتا الجملتين لدلالة المذكور عليه ، وهو من إيجاز القرآن الذي يبلغ حد الإعجاز.

ثالثا - التضمين:

التضمين الذي هو بمعنى إعطاء الشئ معنى الشئ.[1]

كما ضمن لفظ " حقيق" معنى: حريص في قوله تعالى: ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ (الأعراف:١٠٥) كما ضمن لفظ "يشرب" معنى: يروى في قوله تعالى: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾ (الإنسان:٦)

ويُعرَف التضمين في الفعل أو الاسم بحرف الجر الذي عدِّي به كما عرفنا تضمن " يشرب " معنى "يروى" لتعديته بالباء دون "من" التي من عادته التعدِّي بها ، وتضمن "حقيق" معنى حرص لتعديته بـ "على".

والأصل أن الفعل إذا لم يتعد إلى مفعوله بنفسه ، واحتاج إلى حرف جر يصله بمفعوله ، أن يكون معنى هذا الحرف ملائما لمعنى هذا الفعل ،

(١) مفاتيح التفسر ١ / ٢٩٨

والتضمين يكون في الأسماء بأن يضمن اسم معنى اسم آخر، ليفيد معنى الاسمين جميعا، ويكون في الأفعال أيضا ، وأما التضمين في الحروف ففيه خلاف، فبعضهم قال به، وهم الذين يرون أن حروف الجر تتناوب، وهم أكثر الكوفيين ومن وافقهم فيقولون في مثل الآية التي معنا من سورة الإنسان: إن الباء بمعنى "من"، ويرى أكثر البصريين أن التجوّز في مثل ذلك في الفعل، لا في الحرف.

والرأي عندي في هذا المقام هو رأي البصريين لأن معنى الملفوظ على كلامهم يكون باقيا لكن أضيف إليه معنى زاده قوة في بابه بخلاف القول بالتضمين في الحرف فإنه يلغي معنى الحرف الملفوظ ويحل محله معنى حرف آخر، تأمل المثال السابق فإن معنى الشرب باق في الري وهو رأي البصريين، لكن معنى الباء غير باق كما هو مذهب الكوفيين حيث جزموا بأن الباء بمعنى "من".

كأن تقول ذهبت إلى المسجد فإن حرف الجر "إلى" يفيد انتهاء الغاية وهو ملائم للفعل ذهب في حال ارتباطه بغاية ، أو تقول جلست في البيت ، فتكون الظرفية الكائنة في معنى الحرف "في" ملائمة للفعل جلس في حال ارتباطه بظرف المكان.

فإذا كسر هذا التوقع فتعدى الفعل إلى مفعوله بحرف ليس من شأنه أن يتعدى به ، ولكنه من خصائص فعل آخر ، فإن الحل هنا يكمن في اللجوء إلى القول بالتضمين ، بأن يكون الفعل المذكور قد تضمن معنى الفعل الآخر المختص بحرف الجر.

ومن الفوائد المترتبة على ذلك أن الفعل المذكور يتسع معناه بالتضمين، ليشمل معنى الفعلين معا ، مع الاحتفاظ بإيجاز العبارة.

ومن الأمثلة على التضمين في الكتاب العزيز:

قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ﴾ (البقرة:١٨٧) حيث الأصل أن يتعدى لفظ "الرفث "إلى معموله بحرف الجر "الباء" ، لكن هذا التوقع قد انكسر ، حينما تعدى بحرف الجر "إلى" ، وذلك لأن "الرفث" تضمن معنى الإفضاء.(١)

ومنه قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ الفرقان: ٥٩) حيث تعدى الفعل "اسأل" إلى مفعوله بحرف الجر الباء ، والأصل أن يتعدى بحرف الجر "عن" وذلك لأن الفعل "اسأل" تضمن معنى الاعتناء

(١) ينظر المحرر الوجيز ١/ ٨٠

أي: فاعتن به خبيرا أو اشتغل به خبيرا.

أو كما قال الآلوسي: فاسأل معتنيا به خبيرا عظيم الشأن محيطا بظواهر الأمور وبواطنها وهو الله عز و جل ..(١)

رابعًا - التشبيه:

هو في علم البيان: الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى أوصفة بأداة من أدوات التشبيه وهي [الكاف، وكأن، ومثل، وشبه] وما جرى مجراها مما يشتق من المائلة والمشابهة (٢) .

والأصل في طرفي التشبيه (المشبه والمشبه به) أن يكونا معلومين، ووجه الشبه بينهما جامع لوصف مشترك فيهما ، غير أنه في المشبه به أقوى.

فإذا قلت زيد كالأسد ، كان وجه الشبه الجامع بينهما هو الشجاعة في كليهما، لكن الشجاعة في الأسد وهو المشبه به أقوى بلا ريب.

لكن هذا التوقع قد ينكسر عندما يكون طرفا التشبيه أو أحدهما غير معروف المعالم ، وليس له من إدراك معالمه، إلا صورة في الذهن تنطبع فيها أوصافه لا على وجه التحديد.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّوم ٦٢ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ٦٣ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ ٦٥﴾ (الصافات: ٦٢ – ٦٥)

فإن طرفي التشبيه هنا غير معروفين من جهة الحس ، وأوصافهما

(١) روح المعاني ١٩/ ٣٨

(٢) ينظر مفاتيح التفسير ١ / ٢٨٦

صورة ذهنية ، فهو على هذا من تشبيه المعقول بالمعقول ، وهو عكس التوقع.

لكن إذا وقفنا على سر هذا التشبيه عرفنا أن الصورة الذهنية هنا أبلغ من الحس فيما لو كان طرفا التشبيه محسوسين ، أو كان أحدهما محسوسا والآخر معقولا.

حيث شبه أقبح ما يمكن أن يتصور من سوء الطعم وقبح المنظر ، برؤوس الشياطين ، اعتمادا على ما " اشتهر في النفوس من كراهة رؤوس الشياطين وقبحها ، وإن كانت غير مرئية ، ولذلك يصورون الشيطان في أقبح الصور . فإذا رأوا أشعث منتفش الشعر قالوا : كأنه وجه شيطان ، وكأن رأسه رأس شيطان ..."(١)

ومن دواعي كراهية الناس للشيطان أيضا اعتقادهم في "أنَّه شرّ محضٌ لا يخلِطه خيرٌ.. كما أنهم اعتقدوا في المَلَكِ أنَّه خيرٌ محضٌ لا شرّ فيه، فشبَّهوا به الصورةَ الحسنةَ. قالَ اللهُ تعالى ﴿مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ (يوسف: ٣١) وهذا تشبيهٌ تخييليٌّ" (٢)

خامسًا - المغايرة في الإعراب والتوجيه النحوي:

يدرك كل من له صلة بالقرآن الكريم وتفسيره أهمية التوجيه النحوي في بيان معنى الآية ، وترجيح بعض الوجوه في تفسيرها على بعض .ولذا قالوا: الإعراب فرع المعنى.

(١) البحر المحيط ٧ / ٣٤٨

(٢) ينظر: الكشاف للزمخشري ٥ / ٢١٣

ولأن الناس تختلف مداركهم وتتباين ثقافاتهم ، إذ فيهم الخواص الذين تستهويهم الإشارة ، وتروي ظمأهم الدقة ، فقد لبى القرآن رغبتهم فألمح وأشار ، ونوّه وعرّض ، ونوّع في أوجه الإعراب ، فاشتمل على الدقائق التي لا يطلع عليها إلا بصير حصيف .

وفي الناس أيضا العوام الذين لا يلائمهم إلا صريح العبارة ووضوح المعنى وقد راعى القرآن الكريم أحوالهم وأشبع رغباتهم ، فتراه في مواطن أخرى أفصح وأبان ، وأرهب ورغّب وعلّل ووجّه . فاشتمل القرآن على صنوف من القول وفنون من البلاغة.

ولذا فإن بعض أوجه الإعراب التي سلكها القرآن الكريم في بعض المواضع لم تكن مستوعبة من قليلي البضاعة في النحو والإعراب ، خصوصا عندما يكسر القرآن الكريم التوقع ، بنقلة في نسق الآية ، يغاير من خلالها جرسها ، عندما يقرع السمعَ مرفوعٌ بعد منصوب ، أو منصوبٌ بعد مرفوع، له ما يبرره في قواعد النحو ، وفي علم المعاني ، كما سنرى الآن من خلال بعض الأمثلة.

المثال الأول: قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ (الأعراف: ٥٤)

والشاهد هنا قوله: ﴿ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ حيث جاء لفظ (النجوم) منصوبا لعطفه على منصوب ، وهذا هو المتوقع.

غير أن هذا التوقع قد انكسر في آية أخرى مناظرة ، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ

بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (النحل: ١٢).

فقد جاء قوله: ﴿ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ ﴾ بالرفع بعد منصوبات(١)، لينكسر التوقع.

وتوجيه ذلك من جهة النحو: أن الواو استئنافية و(النجومُ مسخرات) مبتدأ وخبر.

وأما من جهة المعنى، فقد علل ابن عاشور هذه المغايرة بقوله: ونكتة اختلاف الأسلوب الفرق بين التسخيرين من حيث إن الأول واضح والآخر خفي لقلة من يرقب حركات النجوم.(٢)

المثال الثاني: قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (البقرة: ٦٢).

والشاهد هنا قوله (وَٱلصَّٰبِـِٔينَ) حيث جاء منصوبا لعطفه على منصوب، وهذا هو المتوقع.

لكن هذا التوقع ينكسر في آية أخرى مناظرة، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (المائدة: ٦٩)

---

(١) في بعض القراءات السبعية جاء اللفظ متسقا مع ما قبله في النصب ﴿ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍ ﴾ فيكون قوله ﴿ مُسَخَّرَٰتٍ ﴾ حالا من النجوم.

(٢) التحرير والتنوير ١٤ / ١١٦

حيث رفع لفظ (الصابئون) بين منصوبات ، فقد سبقه منصوب ولحقه أيضا منصوب ، لينكسر بذلك التوقع.

ولئن كان كسر التوقع هنا مثيرا للاندهاش ، فإن من لم يفقهوا إلا أنه معطوف على اسم "إن" عدوه من الخطأ ، فعلى رأيهم كان ينبغى أن يأتى اللفظ منصوباً ليواكب ما عطف عليه .

ونقول: اللفظ لا لحن فيه كما ادعوا، ولكنهم عجزوا عن توجيه الرفع، وتوجيهه سهل إذ له عدة أوجه هى:

١ – أن يكون قوله (الصابئون) مرفوعاً بالابتداء، والواو قبله للاستئناف، والخبر محذوفاً، والنية به التأخير عما في حيّز (إن) من اسمها وخبرها.

كأنه قيل: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكهم كذا والصابئون كذلك. وقد رجح ذلك سيبويه وأنشد له شاهداً:

ألا فاعلموا أنا وأنتم بغاة ما بقينا على شقاق

أى: فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك.

وهذا هو التوجيه النحوي.

وأما التوجيه من جهة المعنى ، فإن لفظ (الصابئون) إذا كان النية به التأخير، فلابد من حكمة تعلل تقديمه في الذكر، والعلة هنا التنبيه إلى أن الصابئين أشد إيغالاً في الضلالة، وعمقاً في الغواية، حيث لا عقيدة لهم ثابتة كالذين آمنوا وكأهل الكتاب، ولكنهم – كما يذكر ابن القيم – يتخيرون من سائر ديانات العالم بعض شعائرها، ويتركون البعض ولم يقيدوا أنفسهم بجملة دين معين وتفصيله [1]

(١) اغاثة اللهفان ٢/ ١٩٨ .

وهذا الوجه أقوى الوجوه، وأرجح ما تحمل عليه الآية الشريفة.[1]

المثال الثالث: النصب على المدح.

ويدخل في كسر التوقع أيضا من جهة المغايرة الإعرابية ، النصب على المدح كما في قوله تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾ ﴾ (النساء: ١٦٢).

والشاهد في هذه الآية قوله: (والمقيمين الصلاة) حيث جاء منصوباً بين مرفوعين هما قوله (والمؤمنون) وقوله (والمؤتون الزكاة) وهو كسر للتوقع.

التوجيه النحوي والمعنوي:

وقد وجّه النصب في (المقيمين الصلاة) بتوجيهات عدة من أهمها أن النصب فيه على المدح، والناصب فعل مضمر تقديره أمدح، أو أخص المقيمين الصلاة. والعلة بيان فضل الصلاة ومزيتها. وذلك أن النصب على المدح أو العناية لا يأتي في الكلام البليغ إلا لنكتة، والنكتة هنا هي إظهار

---

(١) وهنالك توجيهات نحوية أخرى

(١) فقيل: إن الواو عاطفة والصابئون معطوف على موضع اسم (إن) لأنه قبل دخول (إن) كان في موضع رفع وهذا مذهب الكسائى والفراء.

(٢) وروى عن الكسائى أيضاً أنه مرفوع عطفاً على الضمير المرفوع في قوله (هادوا).

(٣) وقيل: (إن) هنا بمعنى نعم، أى حرف جواب وما بعده مرفوع بالابتداء، وعليه فالصابئون معطوف على ما قبله.

مزية الصلاة، كما أن تغيير الإعراب في كلمة بين أمثالها، ينبه الذهن إلى وجوب التأمل فيها ويهدى إلى التفكير لاستخراج مزيتها وهو من أركان البلاغة ...... ونظيره في النطق أن يغير المتكلم جرس صوته، وكيفية أدائه للكلمة التى يريد تنبيه المخاطب لها كرفع الصوت أو خفضه أو مده بها [(١)]

سادسًا - التهكم

هو في اللغة الاستهزاء مطلقا.[(٢)]

واصطلاحا:هو عبارة عن الإتيان بلفظ البشارة في موضع الإنذار، والوعد في مكان الوعيد ، والمدح في معرض الاستهزاء ، ونحو ذلك. [(٣)]

وأسلوب التهكم بهذا المعنى ، هو كسر للتوقع ، إذ كيف يعبر بلفظ البشارة في موضع النذارة ، والوعد في مكان الوعيد ، والمدح في معرض الاستهزاء؟

لا شك أن هذا كله خلاف الأصل ، لكن إذا عرف أن الغرض من وراء ذلك هو التهكم زالت الدهشة وانعدم الاستغراب.

ومن استعمال القرآن الكريم البشارة في موضع النذارة ، للتهكم قوله تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾ (النساء:١٣٨) وقوله تعالى: ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ

(١) إعراب القرآن وبيانه . محيي الدين الدرويش ٢/ ٣٧٨ . تفسير المنار ٦/ ٥٣ .

(٢) ينظر: لسان العرب مادة هكم.

(٣) ينظر مفاتيح التفسير ١/ ٤٠٣.

إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الصافات:٢٢، ٢٣) .

فقوله (بشّر) في الموضع الأول ، وقوله (فاهدوهم) في الموضع الثاني ، مراد بهما التهكم.

ومن المدح في معرض الاستهزاء بلفظ المدح قوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ (الدخان:٤٩)

قال ابن عاشور: وقوله : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ خبر مستعمل في التهكم بعلاقة الضدّية . والمقصود عكس مدلوله ، أي أنت الذليل المهان ....(١)

سابعًا - توهم عدم تناسب الفاصلة :

الأصل في الفاصلة أن تأتي مُمكّنة في مكانها، مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير نافرة ولا قلقة، متعلقا معناها بمعنى الكلام كله تعلقا تاما، بحيث لو طرحت لاختل المعنى، واضطرب الفهم.

ويعرف هذا بالتمكين أو ائتلاف الفاصلة (٢) وهو وصف لازم للفاصلة القرآنية وهو:

١- قد يكون ظاهرا ، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ إِنَّكَ

(١) التحرير والتنوير ٢٥ / ٣١٦.

(٢) ينظر مفاتيح التفسير ١/ ١٨.

﴿لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧﴾ (هود: ٨٧) فإنه لما تقدم في الآية ذكر العبادة، وتلاه ذكر التصرف في الأموال، اقتضى ذلك ذكر الحلم والرشد على الترتيب لأن الحلم العقل الذي يصح به تكليف العبادات ويحض عليها، والرشد حسن التصرف في الأموال.

٢- وقد يكون خفيا كما في قوله تعالى: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ (المائدة: ١١٨) وهو كسر للتوقع فإن قوله تعالى: ﴿وإن تغفر لهم﴾ يوهم أن الفاصلة ﴿الغفور الرحيم﴾، لكن بعد التأمل يظهر أن المناسب هو ﴿العزيز الحكيم﴾ لأنه لا يغفر لمن يستحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد، يرُدُّ عليه حكمه، فهو العزيز أي: الغالب، ثم وجب أن يوصف بالحكيم على سبيل الاحتراس لئلا يتوهم أنه خارج عن الحكمة لأن الحكيم من يضع الشيء موضعه.

٣- وقد يكون موهما فلا تتبادر إلى معرفته بعض العقول حتى تراجع ، كما جاء في كتب التفسير من : أن أعرابيا سمع قارئا يقرأ قوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩﴾ (البقرة: ٢٠٩) قراءة خاطئة هكذا: ﴿فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ .

ولم يكن هذا الأعرابي قارئا للقرآن، لكنه أدرك الخطأ بسليقته العربية وقال: إن كان هذا كلام الله، فلا يقول كذا الحكيم، فإن ذكر الغفران عند الزلل إغراء عليه. وقد صدق الأعرابي لأن الآية كما أنزلها الله: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

هكذا ذكر السيوطي في الإتقان [1]، وذكر القرطبي [2] عن النقاش "كعب الأحبار" بدل الأعرابي.

ثامنًا - الأسلوب الحكيم

وهو: تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلا مه على غير مراده تنبيها على انه هو الأولى بالقصد، وكذلك أيضا تلقي السائل بغير ما يتطلب تنبيها على ما هو الأولى بحاله وبالسؤال عنه وهو من خلاف مقتضى الظاهر.[3]

ومثاله قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ (البقرة: ١٨٩) فقد سأل السائلون عن السبب في اختلاف شكل القمر، حيث يبدو دقيقا أحيانا، وأحيانا يبدو كبيرا، ونحو ذلك.[4]

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٦١٧

(٢) تفسير القرطبي ٣/ ٢٤

(٣) مفاتيح التفسير ١ / ١٣٢

وقد سمى بعض علماء البلاغة كابن حجة الحموي: القول بالموجب "الأسلوب الحكيم "، لكنهما وإن تقاربا باشتراكهما في كون كل منهما إخراجا للكلام على غير مقتضى الظاهر، إلا أنهما يفترقان في الغاية، فالقول بالموجب غايته رد كلام المتكلم وعكس معناه، والأسلوب الحكيم هو ما قد عرفت• ينظر: مفاتيح التفسير ١ / ١٣٢

(٤) قال الطبري في تفسيره : ٣ / ٥٥٣: ذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن زيادة الأهلة ونقصانها واختلاف أحوالها، فأنزل الله تعالى ذكره هذه الآية، جوابا لَهُم فيما سألوا عنه.

وفي أسباب النزول للواحدي تحقيق كمال بسيوني زغلول ص: ٥٦.

قَالَ الْكَلْبِيُّ: نَزَلَتْ فِي مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ وَثَعْلَبَةَ بْنِ عَنْمَةَ وَهُمَا رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ، قَالَا: يَا =

والأصل في الجواب أن يكون مطابقا للسؤال.

غير أن القرآن الكريم كسر أفق التوقع ، فعدل عن الجواب المباشر عما سألوا ، وأجابهم بما هو أهم، وهو فائدة هذه الأهلة، وفائدتها هي كونها ﴿مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ تنبيها لهم على أن الأَوْلى والأحَقُ بالسؤال ، هو السؤال عن فائدتها وليس ما سألوا عنه٠

تاسعًا - القول بالموجب:

هو أحد الأنواع المصطلح عليها في علم الجدل .[١]

والموجِب بكسر الجيم أي : الصفة الموجبة للحكم . وحقيقته : رد كلام الخصم من فحوى كلامه.[٢]

وهو بذلك كسر لأفق التوقع ، لأن الخصم يتوقع إفحام خصمه بما يرميه به من تهم ، وما يقيمه عليها من أدلة ، فيرد القرآن الكريم كلام الخصم من فحوى كلامه ، تبكيتا له.

قال السيوطي : وهو قسمان :

= رَسُولَ اللهِّ مَا بَالُ الْهِلَالِ يَبْدُو فَيَطْلُعُ دَقِيقًا مِثْلَ الْخَيْطِ، ثُمَّ يَزِيدُ حَتَّى يَعْظُمَ وَيَسْتَوِيَ وَيَسْتَدِيرَ، ثُمَّ لا يزال ينتقص وَيَدِقُّ حَتَّى يَكُونَ كَمَا كَانَ: لَا يَكُونُ عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

قال المحقق: الكلبي ضعيف- وذكره السيوطي في لباب النقول وعزاه لأبي نعيم وابن عساكر في تاريخ دمشق من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس.

(١) قال صاحب التحرير والتنوير ٢٨ / ٢٤٩: ويسمّى بالتسليم الجَدلي في علم آداب البحث.

(٢) مفاتيح التفسير ٢ / ٦٨١.

أحدهما – أن تقع صفة في كلام الغير كناية عن شيء أثبت له حكم، فيثبتها لغير ذلك الشيء كقوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (المنافقون : ٨) .

فالأعز وقعت في كلام المنافقين كناية عن فريقهم ، والأذل كناية عن فريق المؤمنين. وأثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة، فأثبت الله في الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم وهو الله ورسوله والمؤمنون، وكأنه قيل: صحيح ذلك ليخرجن الأعز منها الأذل، لكن هم الأذل المُخرَج، والله ورسوله الأعز المُخرِج.

والثاني – حمل لفظ واقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله، بذكر متعلَقه . قال: ولم أر من أورد له مثالا من القرآن وقد ظفرت بآية منه وهي قوله تعالى: ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ (التوبة : ٦١) [1]

(١) الإتقان في علوم القرآن ٢/ ٦٨١ ، لكن صاحب التحرير والتنوير ١٠ / ٢٤٢ جعل ذلك من النوع السابق وهو أسلوب الحكيم وقال: وجملة : (قل أذن خير لكم (جملة) قل (مستأنفة استينافاً ابتدائياً ، على طريقة المقاولة والمحاورة ، لإبطال قولهم بقلب مقصدهم إغاظةً لهم ، وكمداً لمقاصدهم ، وهو من الأسلوب الحكيم الذي يَحمِل فيه المخاطَبُ كلامَ المتكلّم على غير ما يريده ، تنبيهاً له على أنّه الأولى بأن يراد.

الخاتمة

نسأل الله حسنها

وبعد هذه الجولة حول أساليب القرآن الكريم في كسر أفق التوقع ، نتتهي إلى القول بأن أساليب القرآن في ذلك متنوعة وكثيرة ، وما اخترت دراسته منها هنا ، هي أمثلة فقط ، لأن طبيعة المقام لا تناسب الاستقصاء ، فيمكن أن تقوم على هذا دراسة أكاديمية شاملة ، ولعل بعض طلاب الدراسات العليا "مرحلة الدكتوراه" أن ينهض للقيام بهذه المهمة.

وقد بان لنا من خلال هذه الرحلة أن للقرآن الكريم من خلال كسره لأفق التوقع في بعض أساليبه ، أغراضا وأهدافا ، التقت على تحقيقها ألفاظه ومعانيه ، لتكتمل بذلك عملية النظم الذي هو سر الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم.

وهذا هو شأن القرآن الكريم في كل أساليبه ، سواء منها ما يتفق والأصل ، أو ما يأتي منها على خلاف الأصل.

وقل ذلك أيضا فيما يتفق والظاهر ، أو ما يأتي على خلاف مقتضى الظاهر.

وقد مرت بنا الأمثلة على هذا ووقفنا على شيء من أغراض القرآن الكريم في معالجته بعض موضوعاته من خلال هذا المنحى أو ذلك الاتجاه.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

أهم المراجع:

- القرآن الكريم – جل من أنزله وصدق من بلغه.
- الإتقان في علوم القرآن – جلال الدين السيوطي – خرّج أحاديثه شعيب الأرناؤوط – مؤسسة الرسالة.
- أسباب النزول - أبو الحسنالواحدي، النيسابوري، الشافعي تحقيق - كمال بسيوني زغلول - دار الكتب العلمية – بيروت.
- إعراب القرآن وبيانه - محي الدين الدرويش – دار ابن كثير.
- إغاثة اللهفان من مصائد الشطان - ابن القيم . دار التراث العربي .
- الالتفات في حاشية الشهاب للخفاجي – د. هاشم محمد هاشم – ط:الأمانة .
- البرهان في علوم القرآن - بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ٧٩٤هـ) - دار إحياء الكتب العربية
- تأويل مشكل القرآن – ابن قتيبة – دار التراث .
- تفسير القرآن الحكيم ، المعروف بـ تفسير المنار – محمد رشيد رضا – الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- جامع البيان في تأويل القرآن - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تحقيق أحمد محمد شاكر - مؤسسة الرسالة.
- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي تحقيق هشام البخاري – دار عالم المكتب الرياض.

- الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - تحقيق عبد السلام محمد هارون - دار الجيل.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور – جلال الدين السيوطي – دار هجر.
- دلائل الإعجاز لأبي بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني تحقيق : د.محمد التنجي - نشر دار الكتاب العربي – بيروت
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني – شهاب الدين الآلوسي - دار إحياء التراث العربي - بيروت
- الكشاف عن حقائق التنزيل جار الله محمود الزخشري – مكتبة العبيكان.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد- دار الكتب العلمية.
- مفاتيح التفسير – معجم شامل لما يهم المفسر معرفته من أصول التفسير وقواعده ومصطلحاته ومهماته – أحمد سعد الخطيب – دار التدمرية في الرياض.